مجلة (لغة – كلام) تصدرعن مخبراللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 10/ العدد: 01- جانفي (2024)

تاريخ الاستلام: 2023/09/10 تاريخ القبول: 2024/01/19 تاريخ النشر: 2024/01/21

عناصر السياق في الخطاب الإصلاحي لدى ابن باديس: مقاربة تداولية

✍ ليندة قياس
l.guias@univ-soukahras.dz
جامعة سوق أهراس/ الجزائر

Contextual Elements in Ebn Badis' Reformist Discourse: Pragmatic Approach

✍Linda Guias
l.guias@univ-soukahras.dz
University of Soukahras/ Algeria

ملخص البحث

تتشكل بنية الخطاب الاصلاحي عند عبد الحميد ابن باديس من عناصر أساسية تتمثل في المرسل (المنتج)، والمرسل إليه (المتلقي)، والرسالة (الخطاب)، وبما أن هوية المشاركين في العملية التخاطبية لها تأثير كبير على نوع اللغة المستخدمة وأهداف الخطاب والمعرفة الخلفية المشتركة وقصدية المرسل، فإن هذه الدراسة تسعى الكشف عن دورهذه العناصر في تحقيق تمساك نصوص ابن باديس وترابطها ومدى تأثيرها على المتلقي.

الكلمات المفتاحية: المرسل، المرسل إليه، الرسالة، المعرفة الخلفية، القصدية.

ABSTRACT:

The structure of reformist discourse according to Abdel Hamid Ibn Badis consists of basic elements represented by the sender (producer), addressee (receiver), and message (discourse), and since the identity of the participants in the communicative process has a significant impact on the type of language used, the objectives of the discourse, common background knowledge, and intentionality. The sender, this study seeks to reveal the role of these elements in achieving the coherence and coherence of Ibn Badis's texts and the extent of their impact on the recipient.

Key words : emitter, recipient, discourse, background knowledge, intentionality.

1. مقدمة:

يعتمد التحليل التداولي للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس على توجيه النظر إلى العناصر التي يتشكل منها هذا الخطاب، وحسب تصور **دومينيك مانقانو** فإن: « السياق ليس جهازا يمكن للملاحظ الخارجي الإحاطة به ».[1]

وعلى هذا الأساس حاول محلّلو الخطاب ضبط العناصر التي يتكون منها السياق حيث أدرج هايمس « المشاركين والمكان والزمان والغاية، ونوع الخطاب والقناة واللهجة المستعملة والقواعد التي تحكم التداول على الكلام في صلب جماعة معينة ».[2]

ونلاحظ أن هايمس يركز على العالم الخارجي الذي أنتج فيه الخطاب، ويضيف بعض الدارسين إلى هذه العناصر الخلفية المعرفية المشتركة بين المخاطبين لأن التطور الحاصل في مجال البحث اللساني أفضى إلى تجاوز « النقل الحرفي، إلى البحث في الخلفيات المعرفية والسياقية التي تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين المتكلمين والمستمعين ».[3]

2. أهمية عناصر السياق في تشكيل بنية الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس:

يتأسس الفعل التواصلي على قطبين هما المرسل والمرسل إليه بمعنى **أنا** مقابل **أنت** « وهذه القطبية الموجودة في الضمائر هي الشرط الرئيسي في تتمة العملية التبليغية ».[4]

ونوضّح هذه العلاقة من خلال المخطط الآتي:

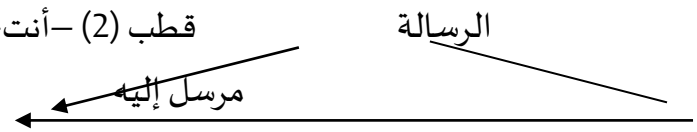

وبما أنّ هوية المشاركين في العملية التخاطبية لها تأثير كبير على نوع اللغة المستخدمة، وأهداف الخطاب وقناة التواصل والمعرفة الخلفية، لذا سأقتصر منهجيا على إبراز دور هذه العناصر في تحقيق تماسك هذه الخطابات وانسجامها.

1.2. المرسل /عبد الحميد بن باديس Emeteur

إنّ الحديث عن المرسل يقودنا للحديث عن الشروط التداولية التي تعدّ أساسا لإنجاح فعل التواصل ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية:[5]

أ- **الصدق**: ما يتلفظ به المرسل يجب أن يكون صادقا ولا يحتمل الكذب.

ب- **المصداقية**: يجب أن تكون عبارات المرسل محكمة التعبير عن نواياه ومقاصده التداولية.

جـ- **الصلاحية المعيارية**: أن يخضع المرسل كلامه إلى القواعد اللغوية المتعارف عليها في مجتمع ما.

وتعكس هذه التصورات جميعها علاقة المتكلم بالعالم المادي الخارجي، والعالم الداخلي النفسي والعالم المعيشي الذي تجسده العلاقات الاجتماعية.[6]

ويحاول المرسل خلق انسجام بين هذه العوالم الثلاثة، وبهذا المعنى يستطيع أن ينتج خطابا تابعا ومقيّدا بسياق معين.

لأجل ذلك كانت اللغة ولا تزال وسيطا فعّالا تتجسد من خلالها علاقة المرسل بمختلف السياقات التي أسهمت في إنتاج خطابه.

وهكذا اعتبر اللجوء إلى السياق التخاطبي لتفسير الملفوظات هو السبيل الوحيد للكشف عن المعاني الكامنة في النفس البشرية.

فالمرسل يوظّف عبارات اللغة ليعبّر عن أفكاره ومعتقداته ومشاعره ورغباته وكل ما يجول في خاطره، لذا حاول **أوستين** في العقد الثاني من القرن العشرين زعزعة بعض المبادئ السوسيرية التي طالما نادت بـ" دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها " أي دراسة الظواهر اللغوية من الداخل وبمعـــــــزل عن قائليها، باعتبارها أشكالا مفرغة خالية من أي معنى في ذاتها، وبعيدا عن السياقات التي أسهمت في إنتاجها « وقد لخّص أوستين رأيه في دراسة اللغة باعتبارها حقيقة تخص الأشخاص المتكلمين لا دراسة اللغة في ذاتها».[7]

ويؤكّد طرحه هذا بقوله: « لقد درست اللغة في ذاتها بكثير من العمق، وهي اليوم ينبغي أن تدرس من أجل حقيقة هي حقيقتنا نحن كأشخاص نتكلم ».[8]

وبهذا المفهوم يتجاوز أوستين النظرة التقليدية في التعامل مع اللغة، فاللغة ليست بنية شكلية صورية كما هو الحال عليه في الأنحاء السابقة،إنّما هي بنية تفاعلية ونشاط تواصلي مخطط له، لأجل ذلك يجب على المرسل أن يمتلك من الكفاءات المعرفية والتواصلية ما يؤهله لإنتاج خطاب ناجح ومؤثر.

والمرسل في الخطاب الإصلاحي يتمثل في شخص عبد الحميد بن باديس وهو من الشخصيات البارزة في تاريخ الجزائر الحديث وممن يصدق عليهم القول: « **يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها** ».[9] رواه أبو داوود

لأجل ذلك عكف ابن باديس طيلة مسيرته الإصلاحية على إصلاح أحوال أمته، فبدأ بإصلاح الفرد قبل المجتمع تماشيا مع منهجه سبحانه وتعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾. [سورة الرعد: الآية 11.]

أما العوامل التي ساعدت على نبوغ هذه الشخصية وتفوقها فقد لخصها الدارسون في عوامل محلية وأخرى خارجية.[10]

أ/ عوامل محلية: وتتمثل في المحيط الأسري حيث اشتهرت أسرته بالجاه والعلم والتدين، وقد اعترف ابن باديس نفسه بفضل والديه عليه، يقول:« إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة اتبعها، ومشربا أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم... وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا، وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر».[11]

كما يعود الفضل أيضا إلى أساتذته « ويحرص ابن باديس على تسميتهم بمشايخي»[12] ومنهم **حمدان لونيسي والمولود بن الموهوب وصالح بن مهنا.**

ب/ العوامل الخارجية: وتتمثل في مواصلة ابن باديس لمسيرته العلمية في جامع الزيتونة العريق وقد تتلمذ على يد الطاهر بن عاشور ومحمد النخلي وبشير بن صفر، كما تأثر بحركة الإصلاح في المشرق العربي.[13]

ويؤكّد الكثير من الباحثين المهتمين بسيرة هذا الرجل مدى تنوع مصادر ثقافته وثرائها، ومنهله الأول هو القرآن الكريم حيث عكف على حفظ سوره منذ نعومة أظافره، وانكبّ على فهمه وتفسيره ما يقارب الربع قرن، وإلى جانب القرآن الكريم عني بالحديث النبوي الشريف – باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي– حفظا وشرحا وتدريسا.

كما نهل من عيون الأدب العربي (شعره ونثره) واطّلـــــع على كتاب الأمالي لأبي علي القالي، وديوان الحماسة لأبي تمام، وديوان المتنبي، وقرأ مقدمة ابن خلدون، وكتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن عربي ، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني.[14]

ونظم الشعر وكتب المقالات المتنوعة، وفسّر القرآن، وشرح الحديث، فنشاطاته متنوعة وثرية ثراء شخصيته الفذة التي لا يستطيع بحث كهذا الإلمام بكل جوانبها، وقد وصفه محمدا لميلي قائلا: "لعل أهم صعوبة يصطدم بها الباحث لشخصية ابن باديس هو تنوع هذه الشخصية وخصبها ونشاطها في أكثر من ميدان".[15]

وهذا الثراء والتنوع انعكس على لغة خطاباته حيث تنساب كلماته من دون تكلف أو عناء طيعة لينة سلسة وعذبة ومن نماذج ذلك يقول ابن باديس:« **من الناس قوم ... عريقون في التدجيل، عريقون في التضليل، رضعوا خسة الطبع، وأولعوا باسترق السمع ليفرغوه في قالب التزوير، ويطلوه بطلاء التغرير لا يردعهم من الافتراء ما يرونه في كتب اللغة من الحياء !!... وكثرت الجن في الاسترق فاستحقت الخزي كل الاستحقاق وأرادت أن تسمع الملأ الأعلى ... والحال أن لا سلم لها ولا منطاد، وبعد فإن " الشهاب " لها بالمرصاد ...**».[16]

تبدو الكلمات في هذا النموذج جزلة قوية ومعبرة بدقة متسامية عن المعاني القابعة في أعماق النفس، حيث استعمل ابن باديس السجع في هذا السياق التلفظي دون تكلف كما استحضر بعض الألفاظ من المعجم الديني كما في قوله " استرق السمع "، " كثرت الجن في الاسترق فاستحقت الخزي كل الاستحقاق ". و" أن تسمع الملأ الأعلى " وهذه العبارات تتناص مع قوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ(18)**﴾. [سورة الحجر: الآيات 16، 17 و18.]

وإلى جانب التناص، نلمح توظيف الكاتب للاستعارة في قوله: « رضعوا خسة الطبع » وهذا النوع من الصور البيانية يعتبره التداوليون آلية من آليات الحجاج، ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كعنصر رئيسي وفعّال في تشكيل الخطاب جماليا إذ تعد الاستعارة الحجاجية بأنها"...النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية ».[17]

ويلجأ المرسل في الخطاب الإصلاحي إلى استخدام لغة مباشرة وصريحة وشفافة في بعض السياقات، ويلاحظ أن هذه اللغة تقترب أكثر من لغة التخاطب اليومي ومن نماذج ذلك قوله: « **قد جرت عادة الناس من قديم عند قدومهم من الحج أن يمكثوا في بيوتهم أياما ثلاثة أو سبعة يستقبلون الزائرين والمهنئين وينفقون في ذلك ما قد بلغ شطر ما أنفقـــوا في الحج أو يقاربه أو يجاوزه بحسب حالهم ...».**[18]

تبدو الألفاظ والعبارات في هذا السياق التخاطبي بسيطة واضحة بعيدة عن الغموض أو التعـــقيد، تعبّر عن ظاهرة اجتماعية تتمثل _في الإفراط في التبذير وإقامة الولائم بعد قدوم الحجاج من الحج _حيث كان ابن باديس حريصا على التصدي لمثل هذه الظواهر حتى لا تستفحل أكثر في أوساط المجتمع الجزائري، وقد نبّه الناس إلى موقف الدين من مثل هذه التصرفات المذمومة، ويقصد من وراء كل ذلك رفع الكلفة والحرج عنهم و إرشادهم ليتجنبوا ما يتنافى و تعاليم دينهم، وقد وردت عبارته سلسة وعذبة، وبأسلوب وصفه الدارسون بالسهل الممتنع.[19]

وما يرمي إليه ابن باديس من أهداف يتقاطع مع مشروع هابرماس Habermas الـــذي « يرتكز على أن اللغة في نظره حوار بين عقول المتحدثين، تهدف إلى إقامة جسر التفاهم وبلوغ الإجماع بصدد القضايا، واللغة هنا جملة قواعد تؤسس للاتصال بين الناس وليست أصواتا تلقى شذرا مذرا ».[20]

وينطوي الخطاب الإصلاحي عموما على مقصدية مباشرة، لا يكتنفها الغموض أو التعقيد، ولا تكلف القارئ عناء البحث في مختلف الدلالات المتخفية وراء النسيج اللغوي، لأن المرسل يرمي إلى تحقيق أهداف اجتماعية سامية تتلخص في مدى إفادة المخاطب وتوجيهه وإرشاده إلى ما فيه خير البلاد والعباد، وكل هذا يتوقف على مدى وضوح الرسالة وشفافيتها.

غير أنه في بعض السياقات يضطر (ابن باديس) إلى استخدام أسلوب يعتمد على التضليل والتمويه والمغالطة، فهو يتعمد انتقاء العبارات التي تحرك العواطف لتثير التعاطف، ومن نماذج ذلك يقول ابن باديس:« **ولأننا مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسوية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسوية وتحسين العلائق بين الأمتين ...».**[21]

ويضيف في موضع آخر قائلا: « **حافظ على مبادئك السياسية، ولا سياسة لك إلا سياسة الارتباط بفرنسا فتمسك بفرانسة العدالة والأخوة والمساواة فإن مستقبلك مرتبط بها».**[22]

ويشيد في سياق آخر بفرنسا ورجالها قائلا: « **ونحن لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نسجل بمداد الفخار على غرة جبين التاريخ هذا الوعد الصريح الصادر من رجل عظيم من رجال فرنسا المتشبعين بالمبادئ الديمقراطية الحرة** ».[23]

يقصد ابن باديس من وراء هذه الألاعيب اللغوية تمرير مشروعه الإصلاحي دون أن تتفطن فرنسا لذلك فتسارع إلى تقويضه من الداخل، كما تعمل على وأد نشاطاته، وحل جمعيته دون وجه حق فهي خطة مبيتة منه حتى لا تتفطن فرنسا لسياسته.

ويؤكد أحد الدارسين هذا الطرح حيث يقول في هذا الشأن:« ولعل هذا التكتيك كما يرى الدكتور سعد الله هو الذي جعل الجمعية محل نقد ممن لم يفهموا خطتها، ولا نستبعد أن تكون الإدارة الفرنسية قد حلت الجمعية وقضت عليها في مهدها، لو لم تختر هذا الطريق المحفوف بالأخطار والمزالق، وقد كان ابن باديس في الواقع (بسمارك الجزائر) خلال الثلاثينات فكان يدير لعبة الدين كما كان (بسمارك ألمانيا) يدير لعبة السياسة، وكلاهما نجح في خطته، وبقي على رجال الأخلاق أن يحكموا على قيمة كل منهما».[24]

يتّضح لنا من هذا القول أن المرسل (ابن باديس) يسعى دائما إلى التستر خلف ألفاظه وكلماته، عند مخاطبته للاستعمار الفرنسي خشية أن تنكشف نواياه الحقيقية، تاركا للقارئ فسحة التأمل في المعاني الخفية التي تحملها هذه الكلمات وقراءة ما خلف السطور للوصول إلى جوهر الدلالات التي تتضمنها هذه النصوص. وعلى هذا الأساس يرى **فيتجنشتاين** « أنّه حتى نصل إلى فهم ما يقوله الآخرون يجب أن تكون لدينا معرفة بما تضمره نفوس البشر ».[25]

ويتطرق ابن باديس لمعالجة قضايا مجتمعه السياسية والاجتماعية والثقافية الفاعلة والمؤثرة في النسيج الاجتماعي، لتشكل خطابا متداولا ترتبط فيه مختلف الأبعاد البلاغية والأسلوبية وعلاقتها بالسياقات التي أسهمت في إنتاجها، لإدراك الوظائف الخطابية فيه، ذلك أن التحليل النصي يؤدي دورا بارزا في السياقات الإدراكية، ولا يقارب بين العوامل الاجتماعية المشتتة وغير المتجانسة، سواء كان ذلك لمنتج النص أو متلقيه.[26]

وإن أول ما يتبادر للأذهان عند ذكر الخطاب الإصلاحي لابن باديس أنّه عرض مطابق للواقع، يحاكيه ويجاريه ويتفاعل مع حيثياته يؤثر فيه ويتأثر بأحداثه.

وتجسد الآليات اللغوية وبعض الصور البيانية والأدوات الحجاجية المتجلّية عبر نسيجه المتشابك حضورا قويا وفعالا، ترمز إلى حضور الذات المخاطبة بقوة في بنية الخطاب العميقة.

ويذكر ابن باديس ما أحدثته كلمته الصريحة من وقع في نفوس بعض المناوئين له قائلا: «... **وأما الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، و أنكروا ما لهذه الأمة من مجد، وما لها من تاريخ، وما لها من رو ابط تجعل منها أمة متحدة ومتجانسة لها من الاتحاد والتجانس ما لأكثر الأمم تجانسا و اتحادا في**

كل بلاد الأرض، فأولئك قوم فزعوا من مقالنا كما تفزع الخفافيش عندما ينبثق نور الفجر، ومنهم من انتقد ومنهم من رد، ومنهم من أفحش و أقذع، وأن إلى الأمة التي أنكروها إيابهم وأن عليها – مهما تجاهلوها – حسابهم ».[27]

تستمد الذات المخاطبة مادتها اللغوية من القرآن الكريم ويبرز ذلك في قوله:﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾[28]، ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾[29]، ﴿ **إِيَابَهُمْ** ﴾[30]، ﴿ **حِسَابَهُمْ** ﴾[31].

ويعدّ التناص مع القرآن الكريم حجة نقلية لأداء وظيفة إقناعية وتحقيق أغـــــــــــراض تواصلية، فبالإضافة إلى أن هذا النوع من الحجاج يضفي على الأسلوب رونقا وجمالا، ويزيد المعنى قوة وبيانا فإنّه يدلّل على مدى كفاءة المرسل التداولية.

ويستعمل المرسل إلية التشبيه للتلميح إلى قصده من جهة ولتأكيد المعنى من جهة أخرى، كما في قوله: « **فأولئك قوم فزعوا من مقالنا كما تفزع الخفافيش عندما ينبثق نور الفجر**».

فالتشبيه في هذا السياق التلفظي يعد وسيلة حجاجية لها تأثيرها على المتلقي من زوايا متعددة، فهو يشدُّ ذهن القارئ إلى العالم الخارجي حتى يمكّنه من إدراك الوشائج التي تصل بين المعنى المجازي كما هو موظف في سياق الكلام و ا المعنى الحقيقي كما هو على أرض الواقع .

ومن الروابط الحجاجية التي برزت كمؤشّرات تركيبية على مستوى البنيـــة السطحية للخطاب [الواو، ما، الفاء، أنّ وإنّ].

ويوظّف ابن باديس هذه الآليات اللغوية لتعمل على ربط العناصر المتباعدة لأجزاء الخطـــاب، وتجعل منه بناء يتدرج تدرجا منتظما من البداية إلى النهاية، إذ أغنى استعمالها في هذا السياق التلفظي عن تكرار بعض الكلمات والعبارات والجمل مما أدى ذلك إلى اختزال مضمون النص، وقد أكّد هاليداي Halliday ورقية حسن R.Hasan على أنّه لكي « تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوســائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة ... ».[32]

وهذا الاتّساق الذي تحقّقه هذه الوسائل اللغوية يضمن اختزال عبارات النص وعدم تكرار أفكار الكاتب، حتى يحظى خطابه بقبول واستحسان القارئ باعتبار أن المقبولية l'Acceptabilité تعد مقوما من مقومات النصية كما تجعل النص يصطبغ بصبغة تداولية.

وعليه فإن المرسل يتعمد توظيف أدوات الربط التي تتناسب وموضوع الخطاب ومقام التلفظ ليضمن تمرير مشروعه الإصلاحي .

وثمة معالم أخرى من معالم الذات المخاطبة نلمحها في هذه المدونة من خلال استحضاره لشخصيات دينية :{محمد صلى الله عليه وسلم، عبادة بن الصامت، هند بنت عتبة، سعد بن الربيع،} وأخرى فكرية فلسفية {ابن العربي، الشيخ الطاهر الجزائري} وشخصيات سياسية مثل {مصطفى كمال أتاتورك، عبد العزيز الثعالبي، وغيرهم ...}.

ويقصد المرسل/ ابن باديس من استحضاره لمثل هذه الرموز التاريخية إحياء الانتماء الحضاري في نفوس الأفراد، واستنهاضهم من أجل السير بهم قدما نحو التغيير والتطوير والإنتاج، فيتمكن بذلك من تكوين جيل يمجد الفكر الإصلاحي ويؤمن بمنطق العمل وحب التغيير.

فالمرسل في هذه الخطابات يعدّ شاهدا على عصره، وموثقا لتاريخ أمته وهو المـــــربي والمعلم، والمصلح والمرشد، والحاضر في وعي كل تاريخ الوطن الجزائري، وهذا ما جعل شخصيته تتسم بالثراء والتنوع والخصب.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نعدّ ابن باديس من أبرز أعمدة الفكر والثقافة والأدب في تاريخ الجزائر الحديث، بحيث لا يمكن أن ننكر جهوده أو نتجاهل قيمته، وكل ما قدمه من أعمال جليلة يوما ما.

كما يمكن للقارئ أن يتعامل مع هذه المضامين الإصلاحية على أنّها كشف لتجـــارب المتكلم، ومدى معاناته مع الاستعمار الفرنسي، ومدى تفاعله مع قضايا أمته وأحداث عصره، فهذه النصوص تعد مرآة عاكسة لواقعه وما ينطوي عليه هذا الواقع من آلام وآمال.

بهذه النظرة العميقة للوجود والأشياء يحقق هذا النوع من الخطابات انسجامه وفرادته وتميزه.

2. 1.الرسالة (الخطاب الإصلاحي) Message

يمثّل الخطاب الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس جسرا يربط بين الأدب والفكر في بنية تفاعلية تحاورية، تندرج ضمن سياق تواصلي يقوم على ثنائية (المرسل – المرسل إليه) باعتبارهما الشريكين الفاعلين في الخطاب « فالأثر الأدبي أو اللغوي لا تتحقق فاعليته إلا ضمن مسار تواصلي ثنائي، طرفاه المبدع والمتلقي ».[33]

هذا التجاوب الواعي بين طرفي الخطاب تتحكم فيه مجموعة من المقاصد والمواضعات اللغوية والأعراف الاجتماعية بحسب ما يعتقده – سورل – وهو ما يجسّده المشروع الإصلاحي لابن باديس.

ويعدّ الدارسون تراث هذا المصلح نموذجا رفيعا من الأدب الجزائري الذي ترعرع في كنف الحركة الإصلاحية في بدايات القرن العشرين.

ويتميّز أسلوبه الهادئ الرصين بجودة التأليف، وحسن التركيب، وتعبر لغة هذه النصوص عما تختزنه ذاكرته من موروث ثقافي كبير، ومتنوع ،تمثل في حفظ القرآن الكريم ،والحديث النبوي الشريف ،وسير وتراجم بعض الأعلام، بالإضافة إلى اطلاعه المستمر على مجريات أحداث عصره، إن على الصعيد الوطني أو الدولي لمواكبة ما يجري من أحداث، وعبر عن هذه المضامين بأشكال فنية مختلفة، وضروب من الكتابة متعددة منها: الخطبة، المقالة، القصة، الترجمة، السيرة، الفتوى، التفسير، شرح الحديث، نظم الشعر، كتابة الخواطر وغيرها من فنون التعبير وأشكاله المتعددة.

وقد تبدو نصوص هذا العلامة – للوهلة الأولى – أنّها منفصلة لا رابط بينها نظرا لتعدد الميادين التي طرقها والأبواب التي عالجها، يعوزها التماسك والتلاحم والانسجام، والحقيقة أن المتفحص لها « لا يعزب عنه الخيط الذي ينتظمها، والسلك الذي يجمع بينها فهي حلقات يأخذ بعضها ببعض، لتكون سلسلة حاصر بها ابن باديس جيوش الباطل، وجحافل الضلال، ورسّخ بها مقوّمات أمة في طريقها إلى الزوال ».[34]

ولعل الحقيقة التي غفلت عنها فرنسا أن هذا الإنتاج الأدبي الكبير الذي خلفه ابن باديس، وإن كان يبدو في ظاهره أنه أدب خالص لخلق المتعة أو اللذة لذة القراءة – على حد تعبير بارت – إلا أنه يحمل بين ثناياه إستراتيجية بعيدة المدى، وخطة غير معلنة الأهداف والمرامي لتغيير شؤون البلاد والعباد وإصلاح أحوال الأمة.

« فقد كان يلقى القبض على إمام النهضة عبد الحميد بن باديس فيحقق معه، ثم يطلق سراحه، ومما أعان الشيخ ابن باديس على إقناع عدوه ببراءته رغم توجسه منه أسلوب الأدبي الهادئ غير المباشر، وقد تفطن رحمه الله لهذا الأسلوب بذكائه، وغدا يعد للأمر عدته، ويأخذ بأسباب النصر والتمكين »[35].

لقد تقنع هذا الرجل بقناع الأدب، وتحلّى بحلية الفنان المبدع، وليس لباس رجل دين حتى بدا لفرنسا أنه رهبان دير وهو يخفي وراء كل هذا وذاك نية صادقة وعزيمة قوية لمجابهة العدو.

من هذا المنظور يمكننا أن نتعامل مع الخطاب الإصلاحي لابن باديس على أنه مزيج من خليط متجانس يجمع بين الأدب والفكر والدعوة إلى توحيد الله.

وما نلاحظه هو تعدد وظائف الخطاب في بنية الخطاب الإصلاحي، وتبرز من منظور تداولي وظيفتين وهما:[36]

أ/ الوظيفة التعاملية: حيث تكون اللغة وسيطا فعالا لنقل المعلومات فيحرص المرسل على تشكيل بنية خطابه حتى يتمكن المرسل إليه من أن يستمد منها المعلومات والمعارف الصحيحة والدقيقة ،ففي خطاب له موسوم ب " **الصدق والكذب أين يهدي كل واحد منهما** " تطرق ابن باديس من خلاله إلى شرح حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصدق والكذب قائلا:« **والصدق مطابقة الخبر للو اقع وتصويره على ما هو عليه، والكذب عدم مطابقة الخبر للو اقع وتصويره على خلاف ما هو عليه ... ».**[37]

ويضيف قائلا:« **تمسّكوا بالصدق وألزموه فإنّ الصدق يوصل إلى العمل الصالح الخالص من كل مذموم، وإنّ العمل الصالح يوصل إلى الجنة، ... واحذروا الكذب واجتنبوه فإن الكذب يوصل إلى الشر والانبعاث فيه وأن الشر يوصل إلى النار...».**[38]

تبرز الوظيفة التعاملية في المضامين الإصلاحية من خلال حرص ابن باديس على بناء خطاب يتضمن مفاهيم تربوية أخلاقية تتعلق بالصدق والكذب، متوخيا الشرح والتوضيح والتبسيط، وبأسلوب تقريري تعليمي يقصد من ورائه الحرص على تعليم الناس أمور دينهم، وتوجيههم إلى ما يخدم

مصلحتهم في الدنيا والآخرة معتمدا في ذلك إستراتيجية توجيهية أثناء تبليغ خطابه ،ويؤشّر لهذه الإستراتيجية بأفعال الأمر الآتية: {تمسكوا،ألزموا،احذروا،اجتنبوا}، وبهذه الكيفية يتلقى المرسل إليه المعلومات بكل يسر وسهولة، فيتحقق التبليغ و الإفهام .

وعلى هذا الأساس تعدّ الوظيفة التعاملية « إحدى مزايا اللغة الطبيعية التي تمكن الناس من تطوير ثقافاتهم من خلال المعلومات المتناقلة، ومن تحقيق التواصل فيما بينهم سواء كان ذلك بغرض التوجيه، أو التعليم أو غيره ».[39]

فالرسالة التي هي الخطاب الإصلاحي تهدف إلى النصح والإرشاد والتثقيف والتربية والتعليم.

ب/ الوظيفة التفاعلية: يبرز هذا النوع من الوظائف في المضامين الإصلاحية من خلال حرص ابن باديس على إقامة علاقات مع أفراد مجتمعه في إطار التعامل اليومي بغرض تثبيت هذه العلاقات، وقد يتجاوز ذلك إلى التأثير فيهم.[40]

ومن نماذج ذلك ما أورده في خطاب له توجه فيه إلى أهالي مدينة قسنطينة:

« أيها القسطنطنيون ... برهنوا على وطنيتكم، برهنوا على ديانتكم، برهنوا على حياتكم، برهنوا على محبتكم للعلوم والآداب، برهنوا على محبتكم للرقي والمدنية ... برهنوا على هذا كله بإقبالكم العظيم على الاحتفال الفني الذي ستقيمه شبيبة الكلية الجزائرية ... ».[41]

نلاحظ في هذا النموذج حضور سلطة المتكلم وقصديته بقوة، فهو يحاول أن يمارس تأثيرا على المتلقي من خلال الإمكانات اللغوية المتاحة له، ويتجلّى ذلك في استهلاله لخطابه بأداة النداء " أيّها " لجلب انتباه المخاطب، ولإحداث تواصل تفاعلي معه، وإشراكه في موضوع الخطاب، وتوظيفه لفعل الأمر {برهنوا } والذي تكرّر (ست مرات) بالإضافة إلى الضمير المتصل (كم) الدال على جمع المخاطبين وقد تكرر (خمس مرات) لتأكيد المعنى وتقويته من جهة، بالإضافة إلى خلق نوع من الدافعية والتحفيز لاستنهاض الهمم من أجل المشاركة الإيجابية والفعالة داخل النسيج الاجتماعي من جهة أخرى ، باعتبار أن الخطاب الإصلاحي عموما هو نشاط اجتماعي وفعل تواصلي مخطط له، ويسعى إلى ربط أواصر المجتمع وتثبيت العلاقات الاجتماعية بين أفراده، وعليه « فإن علاقاتنا الاجتماعية تحدد الكثير مما نقوله، وقدرا عظيما مما نوصله، فالتفاعل اللغوي هو بالضرورة تفاعل اجتماعي ».[42]

ويذهب الدارسون إلى أن هاتين الوظيفتين (التعاملية والتفاعلية) تندرج تحتهما وظائف لغوية مختلفة.

وسنتطرق إلى تحليل باقي الوظائف في معرض حديثنا لاحقا عن الترسيمة التواصلية لرومان جاكبسون، وهذا بعد توجيه عنايتنا للطرف الآخر الموجه له الخطاب وهو " المرسل إليه ".

2. 3. المرسل إليه/ متعدد(الشعب الجزائري /الاستعمار...) Récepteur

يمارس هذا الطرف نوعا من السلطة على المرسل (المتكلم)، ويتجلّى ذلك في انتقاء المتكلم لوسائل لغوية محدّدة تكون مناسبة لمقام التخاطب من أجل إحداث تواصل تفاعلي مع الطرف الموجه إليه الخطاب، ولتكون الرسالة مؤثرة وناجحة.

ومن أبرز المؤشرات التركيبية في الخطاب الإصلاحي لابن باديس والتي لهـــــا صلة بالمرسل إليه/ المتلقي عموما ضمائر المخاطب بأنواعها المتصلة والمنفصلة والمستترة ومن نمـــاذج ذلك قوله: « **حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك، وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل** ».[43]

يتوجه بخطابه إلى المتلقي بشكل مباشر وصريح، وهذا ما جعل المرسل إليه يحضر بقوة في بنية النص السطحية والعميقة، وقد يتجسد حضوره من خلال (كاف الخطاب) المتصلة بالوحدات اللغوية الآتية:[حياتك)، قومك)، لغتك)، عاداتك)، وطنك)، دينك)]، بالإضافة إلى الضمير المستتر في قوله: [حافظ (أنت)، أردت (أنت)، فكن (أنت)] والضمير المنفصل " أنت ".

ويهدف ابن باديس من وراء هذه الإستراتيجية الخطابية تقديم جملة من النصائح والإرشادات التي تعين المسلم على فهم أسرار الحياة، كما بين له السبل التي تؤدي به إلى السعادة، وهذا بالحفاظ على دينه ووطنه، وجميل عاداته، ويجب أن يكون عصريا في تعامله حتى لا يشذ عن الوسط الذي يعيش فيه.

ومن المؤشرات اللسانية الأخرى المتعلقة بمتلقي الخطاب، ما ورد من أسلـــوب الشرط في قوله: « **وإذا أردت الحياة لهذا كله، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه**».

ويعد الدارسون أسلوب الشرط من الأساليب الحجاجية التي تهدف إلى إقناع السامع والتأثير فيه، والشرط عموما محكوم بقاعدة أن الجملة الأولى (جملة الشرط) تستلزم بالضرورة الجملة الثانية (جملة جواب الشرط)، فالعلاقة التي تحكمها هي علاقة الربط السببي « ويعني هذا أن هناك ترابطات أقوى من العرضية وهي الترابطات السببية وعليها يتوقف انسجام النص السردي ».[44]

فالتركيب الشرطي يساعد على ترابط الخطاب وانسجامه ويعدّه علماء لغة النص من العلاقات المنطقية الدلالية التي تضمن نمو الخطاب واستمراريته.

والغرض من توظيف هذا النوع من العلاقات الدلالية هو مد جسر التواصل بين النص والقارئ (المرسل إليه) لتحقيق التفاعل الإيجابي بين أطراف التخاطب.

ومن ثمّ فإن الخطاب الإصلاحي مدين في انسجامه وترابطه إلى الآليات اللغوية والمنطقية والبلاغية والتداولية، حيث تعمل هذه العناصر في تضافرها على تقديم يد المساعدة للقارئ للبحث عن الدلالات المتخفية وراء عبارات النص من أجل سبر أغواره، وكشف معانيه.

ولهذا عُدَّ القارئ أو "المرسل إليه" في النظريات اللسانية المعاصرة منتج ثان للنص، لأنه يمارس عند قراءته للنص عملية الهدم وإعادة البناء، فدوره لا يقل أهمية عن دور منتج النص، فكل واحد منهما له أهميته في إدارة اللعبة الكلامية.

الخاتمـــــــة:

من خلال هذا المستوى من التحليل وبالنظر إلى المضامين الإصلاحية لابن باديس التي اخترنا نماذج منها فقط كعينات للدراسة توصلنا إلى ما يلي:

1- نعدّ ابن باديس من أبرز أعمدة الفكر والثقافة والأدب في تاريخ الجزائر الحديث، بحيث لا يمكن أن ننكر جهوده أو نتجاهل قيمته، وكل ما قدمه من أعمال جليلة يوما ما.

2- باعتبار أن الخطاب الإصلاحي عموما هو نشاط اجتماعي وفعل تواصلي مخطط له، ويسعى إلى ربط أواصر المجتمع وتثبيت العلاقات الاجتماعية بين أفراده، وعليه « فإن علاقاتنا الاجتماعية تحدد الكثير مما نقوله، وقدرا عظيما مما نوصله.

3- أفضى البحث عن عناصر السياق ووظائف الخطاب عند ابن باديس الكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط منتج/ المرسل هذه النصوص بمتلقيها/ بمتلقيها من حيث هي علاقة رسمية أو غير رسمية ، كما كشفت عن تعدد الجهات الموجّه إليها الخطاب ، فالمرسل واحد "ابن باديس" ولكن المرســـــل إليه متعدد (الشعب الجزائري -المسلم الجزائري- رجال القضاء الإسلامي- رجال التربية- النواب- الولاة- المستعمر الفرنسي..."، وهذه العلاقات المتعددة تدل على مدى تفاعل ابن باديس مع العالم الخارجي المحيط به

الاحالات

1- دومينيك مانقانو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانقانو، (...)، ص 27.

2- المرجع نفسه، ص 25 وص 26.

3- عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، (2006)، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، ص 18.

4- ينظر عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي، ينظر عمر بلخير، (....)، ص 70.

5- يورغن هابرهاس ومدرسة فرانكفورت النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق، (2005)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص 131 بتصرف.

6- المرجع نفسه: ص 132.

7- عندما نتواصل نغير، عبد السلام عشير، ص 62.

8- المرجع نفسه، ص 62.

9- النهاية في الفتن والملاحم، عماد الدين أبو فداء إسماعيل بن عمر بن كثير، (1988)، دار الجيل بيروت،لبنان،ط1، ج1، ص39 .
10- عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، عمار بن مزوز، (,,,)، ص 49.
11- إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان ص 58.
12- عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، عمار بن مزوز، ص 51.
13- المرجع نفسه، ص 59 و60.
14-عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 1، ص 92.
15- ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي، ص 20.
16- عبد الحميد بن باديس:المصدر السابق، مج 5، ص 22.
17- اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي، (2009)، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت،لبنان، دط، ص110.
18- المصدر نفسه، مج 6، ص 18.
19- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج 1، ص 92.
20- يورغن هبرماس ونظرية فرنكفورت النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق، ص 125.
21-المصدر نفسه، مج 3، ص 254.
22- المصدر نفسه، مج 3، ص 159.
23- المصدر نفسه، مج 5، ص 30.
24-: الإمام عبد الحميد بن باديس، عبد القادر فوضيل ومحمد الصالح رمضان، ص 159. وانظر، الحركة الوطنية الجزائرية، أبو القاسم سعد الله الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج3، ص 96.
25- فلسفة التواصل، جان مارك فيري، (2006)، ترجمة عمر مهيبل، منشورات الإختلاف، الجزائر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، ص 29.
26- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص 248.
27- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 3، ص 289.
28- سورة البقرة، الآية 10.
29- سورة الحشر، الآية 19.
30- سورة الغاشية، الآية 25.
31- سورة الغاشية، الآية 26.
32- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ص 13.
33-: التداولية الإبداعية في الشعر الثوري الجزائري، ديوان أطلس المعجزات للصالح خرفي نموذجا، عبد اللطيف حنى ، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص 216.
34- عبد الحميد بن باديس :آثار عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ، ط1، 1984، ج3، ص 12.

35- الأدب في برنامج جمعية العلماء المسلمين ضمن كتاب أدب الحركة الإصلاحية مفاهيم وقضايا، محمد هيشور، دورة علال الفاسي، أعمال الملتقى الدولي الرابع للأدب الإصلاحي، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المملكة المغربية، أيام 18، 19، 20 مارس، ص326.

36- استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص 02.

37- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 2، ص 280.

38- المصدر نفسه، مج 2، ص 281.

39- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 04.

40- المرجع السابق نفسه، ص ن.

41- عبد الحميد بن باديس، المصدر نفسه، مج 5، ص 52.

42- جورج يول: التداولية، ص 97.

43- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 3، ص 158.

44- محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص 84.